تناص معماري

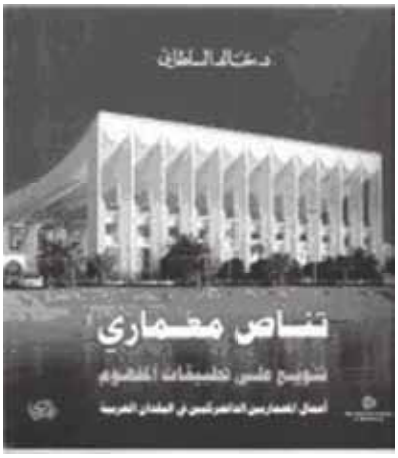

مراجعة رمزي الغزوي*

من بين الكتب الهامة التي صدرت خلال العامين الماضيين كان كتاب تناص معماري للمهندس خالد السلطاني، هذا الكتاب الذي جاء مختلفا عن التقليد والرتابة، إبتداء من عنوانه الذي استعار كلمة تناص من النقد الأدبي ليسحبه على فن جميل من فنون البشرية هو هندسة العمارة، وهذا الكتاب الصادر عام 2007 عن دار المدى ويقع في 330 صفحة من القطع الكبير وبمواصفات فاخرى، وهو يستقي اهميته المعمارية من جانبين: فهو يثري المرجعية الفكرية لمصممي تلك الأبنية بقيم معمارية مختلفة من جانب، ومن جانب آخر يقدم للمعماري المحلي تمرينًا ملموسًا لأهمية تلك القيم، والمبادئ المألوفة لديه، من خلال قراءتها بنكهة خاصة، متاتية من تأويل الآخر وتفسيره لها، ضمن معايير ثقافته المختلفة، وضمن مستوى معارفه المهنية.

وبصورة مقربة، يشتغل الكتاب على منهاج إعادة فهم وتقييم العناصر المألوفة لعمارتنا، ضمن رؤى مخالفة، قادرة بحكم تميز منجزها، أن تمنحها حياة أخرى، وتجعل منها جزءًا من تطبيقات الخطاب الحداثي المار بمقارباته المتنوعة، المتخم بها المشهد المعماري العالمي.

أما التناص (Intertextuality)، فهو مفهوم شائك، ومتنوع في طروحاته، تبعًا لمفاهيم النقد المعماري الحداثي، لكنه أساسًا مفهوم نقدي أدبي، نحتته الناقدة البلغارية الأصل «جوليا كريستينيا،» وحددته بلوحة فسيفسائية من الإقتباسات، وكما أن كل نص هو تشرّب وتحويل لنصوص أخرى، كما أنه تقاطع داخل، مأخوذ من نصوص أخرى.

ومجال التناص لا يقتصر على الجانب الأدبي، وإنما يضم كل ما انتجته الحضارة الإنسانية من علوم وآداب وفنون؛ ولهذا فهو يوظف في آليات النقد المعماري أيضًا. ويتوخى التناص هنا دراسة تداخل القيم والأفكار، التي تعود لثقافات مختلفة ويجعل من ذلك التداخل حاضنة فكرية، يستقي منها المصمم افكاره المعمارية.

كما أن التناص معني في كشف العلاقات الثنائية، بين منجز معماري محدد (باعتباره نصًا ابداعيًا)، وبين اطروحة معمارية أخرى. إنه ينشد إلى إدخال قيم هجينة، تعود لثقافات متنوعة، ولطروحات معمارية محددة، وتجعل منها خطابًا لمرجعية فكرية، تنهض عليها الممارسة الإبداعية. فقيم الأثر المميز معمارياً، والإستثنائي في فكريته التصميمية، والمنتمي إلى ثقافة الآخر، ينبري بمدلول آخر، يضاف إلى مدلوله الخاص والمعرف به، ضمن سياق المفاهيم الثقافية والمعمارية، التي ينتمي إليها، عبر قراءة مختلفة وتأويل مغاير.

ونرى من خلال نصوص الكتاب، أن عملية التناص المعماري هي عملية إبداعية، يلجأ إليها المعمار بمحض رغبته سعيًا لإثراء منجزه التصميمي. فهي في هذا المفهوم، لا تلغي شخصية المعمار/المؤلف: المتناص بمنجزه مع الآخر، بمعنى آخر ليس ثمة «موت لمؤلف،» وفقًا لاطروحة «رولان بارت،» الشهيرة في عالم النقد. بل ربما العكس صحيح، إذ أن فعالية التناص تكرس حضور المعمار في العملية الإبداعية، وتمنح منجزه نكهة خاصة، تكون في أغلب الحالات نكهة فريدة واستثنائية الخصائص.

وهي بهذا لا تلغيه كما أنها قطعاً لا تميته!. فهي تشير إلى قيمة الفعل الإبداعي له، وتؤكد على إجراءات الناتج التصميمي المتحصل، كونه ناتجًا متجاوزًا لدلالات القيم التناصية، من خلال آليات التأويل، التي يوظفها المبدع؛ سعيًا للحصول على قراءة أخرى لها.

يسعى هذا الكتاب من خلال فصوله الثلاثة، وملاحقه، وخاتمته، وصوره المدهشة، يسعى إلى كشف مفهوم التناص المعماري، ضمن ممارسة المعماريين الدانمركيين، في تصاميمهم المخصصة للأرض العربية. وهيكلية الفصول مبنية بمعمار يبتغي منه الإحاطة الموضوعية، لتلك الفعالية وكشف خصائصها كشفًا دقيقًا.

* كاتب– الأردن

فالفصل الأول، يتناول أهمية الحوار الثقافي بين الحضارات واشكاله، ويركز على الجانب الثقافي، الذي تنتمي إلية العمارة، كونها فعل ثقافي بامتياز. فالكتاب معني بمتابعة وعرض وتفكيك»ثيمة» محددة، ومن أجل إظهار أهميتها. ويحرص هذا الفصل على تناول أعمال المعماريين العالميين الآخرين، الذين عملوا في منطقتنا، ويقدم خبرتهم الخاصة ومقارباتهم المتميزة، في التعاطي مع ثيمة هذا الكتاب.

فمن خلال تمجيد الحوار الثقافي المرموق بين الذات والآخر، ومن خلال متابعة اكتشاف «الذات» لاهتمامات الآخر، وكيفية تعاطيه، لحل إشكالات الفهم الخاص، والمتفرد للإرث الحضاري المغاير، مع الحرص على توظيف مقاربات فكرية، غير مسبوقة، تنشد رؤية الحدث كما هو، لا كما يتعين له أن يكون، وعبر «ميكانيزم» مفهوم «التأويل» الذاتي، المؤسس لفعل الحوار الحضاري الرفيع. فالمنطقة العربية نالت اهتمامًا من قبل الغربيين، وتحديداً الأوروبيين منهم، كونها المنطقة الأقرب إلى قارتهم جغرافيًا أولًا، وثانيًا أن معظم دول المنطقة الحالية كانت يوماً خاضعة للنفوذ الاستعماري الأوروبي. ويتطلع الجهد المعماري، الذي يتبناه الكتاب إلى ممارسة نوع من التغاضي، وصولاً إلى التنصل من مساعي إقامة تراب هرمي بين الثقافات، معترفًا أي الكتاب، بأهمية وقيمة منجز الثقافات الأخرى. ثمة ممارسة مميزة يمكن رصدها في بعض أعمال المعماريين الغربيين العاملين في المناطق الجنوبية، تنطوي على مبالغة في تأكيد عناصر تكوينية محددة. تكاد تكون ملموسة، في أعمال المعمار الشهير»لوكوربوزيه،» في قراءة منجز العمارة العربية- الإسلامية.

أما من خلال الفصل الثاني، فسنرى أنه يعطي القارئ العربي نبذة مختصرة عن منجزات أهم اثنين من المعماريين، الذين تصدوا لفعالية التناص مع العمارة الإسلامية، عبر تصاميمهم المخصصة لمنطقتنا. (ناهيك عن أن هذه المنجزات تعطى لأول مرة). وهما «يورن اوتزن» و «هينينغ لارسن.» إن هذا الفصل لا يسعى إلى تكوين انطولوجيا كاملة لمنتج هذين المعماريين المهمين، وإنما يحرص على تبيان المسار التصميمي لهما.

إننا نعتقد أن دراسة قيمة واهمية التصاميم المنجزة لمنطقتنا والتعرف على مرجعياتها التصميمية، لا يكمن لها أن تكون دراسة شاملة وموضوعية، بمعزل عن معرفة النشاط العام لأولئك المعماريين الذين تعد تصاميمهم «الإسلامية» جزءًا لا يتجزأ من نتاجهم المعماري، ولهذا فإن منجز المعماريين المعروفين عالمياً، سيتناوله هذا الفصل، بغية الوصول إلى استنتاجات منطقية تهم موضوعة الكتاب بشكل عام.

كُرس الفصل الثالث لأعمال المعماريين الدانمركيين الذين عملوا في منطقتنا، والذين حرصوا على تقديم رؤاهم الخاصة. وهم ينوبون بتصاميمهم المميزة عن نشاط معماري متنوع، ومتعدد الرؤى بين الدانمرك وبقية البلدان العربية، شهدته الفترة الزمنية الأخيرة.

وهذا الكتاب يخلص إلى إعطاء لمحة عن مملكة الدانمرك وعن السيِّر الذاتية للمعماريين الذين عملوا في منطقتنا من خلال خاتمة وملاحق هذا الكتاب، وثمة تبان للمصادر المعتمدة في كتابة نصوص الكتاب، لتكون مرشداً لأولئك الذين لديهم رغبة في التعرف على واقع العمارة الاسكندينافية ولا سيما الدانمركية منها.

وبهذة الهيكلية التي تؤسس لمنهجية نراها مقبولة، يتصدى الكتاب إلى إشكالية الحوار مع الآخر، ذلك الحوار الذي يتطلع إلى أن يتم على مستوى رفيع، بشأن العمارة. على أن «ثيمة» الكتاب ليست قاصرة على رؤية الآخر، وفهمه وحتى قبوله فقط؛ إنما تتعاطى مع موضوع «الأنا» منظور إليها من قبل «الآخر.» بتعبير آخر. يظل الكتاب مسكونًا بهاجس كيفية تعامل «الآخر» (وهنا المقصود: المعماريون الدانمركيون) وتناصهم مع منجز العمارة الإسلامية، عند اشتغالهم على تصاميم مخصصه للأرض العربية، ورؤية ذلك التعامل من وجه نظر محلية، تتمثل بخصوصية الماتب المنتمي إلى تلك البيئة الثقافية المعنية بإجراءات التناص.

ولكون الحوار والمحاورة يطمحان، إلى تماس بين ثقافتين على مستوى عال، فإن نصوص الكتاب تجتهد لأن تكون بنفس المستوى، بعيداً عن محاولة تقديم «صور سياحية» عن الآخر، أو الانهماك في ترويج دعائي له. لذا يتوجب علينا التذكير بأن فكرة الكتاب وخطابه تقعان ضمن انشغالات المؤلف الشخصية، وهما بالتالي يكوّنا جزءاً من مشروعه الثقافي المتمظهر بدراسة العمارة وتجلياتها. ناهيك عن أنه وبمساعدة أشخاص ومؤسسات وتشجيعهم وإبداء التسهيلات العديدة لما انتهى هذا العمل الطويل والمضني والجديد في ادبيات النشر المعماري العربي.

تناص معماري كتاب جديد للمكتبة العربية ويشكل إضافة حقيقية لجوهرها.